الفنان السعودي عبدالجبار اليحيا...

جُمل تشكيلية.. في حب الوطن والإنسان

يعد (عبدالجبار اليحيا) رائداً من رواد الحركة التشكيلية السعودية المعاصرة، تستطيع أن تكتشف خصوصيته من خلال مداخل وملامح وتقنيات تشكيلية متنوعة، الأمر الذي يدعوك إلى التأمل والتـــرقب والملاحظة عند رؤية وتذوق أعماله التصويرية، وخاصة أن ذاكرته وإنسانيته تتضافران في عفوية وتلقائية مع سطح العمل الفني، كما أنه مباشر وصريح يغضب و يفرح ويفاجئك بحالة من حالات الوجد والتأمل والحب مع ذاته ومع الآخرين من خلال أعمال ترصد تلك الحالات والانفعالات.

بقلم | د. أحمد عبدالكريم *

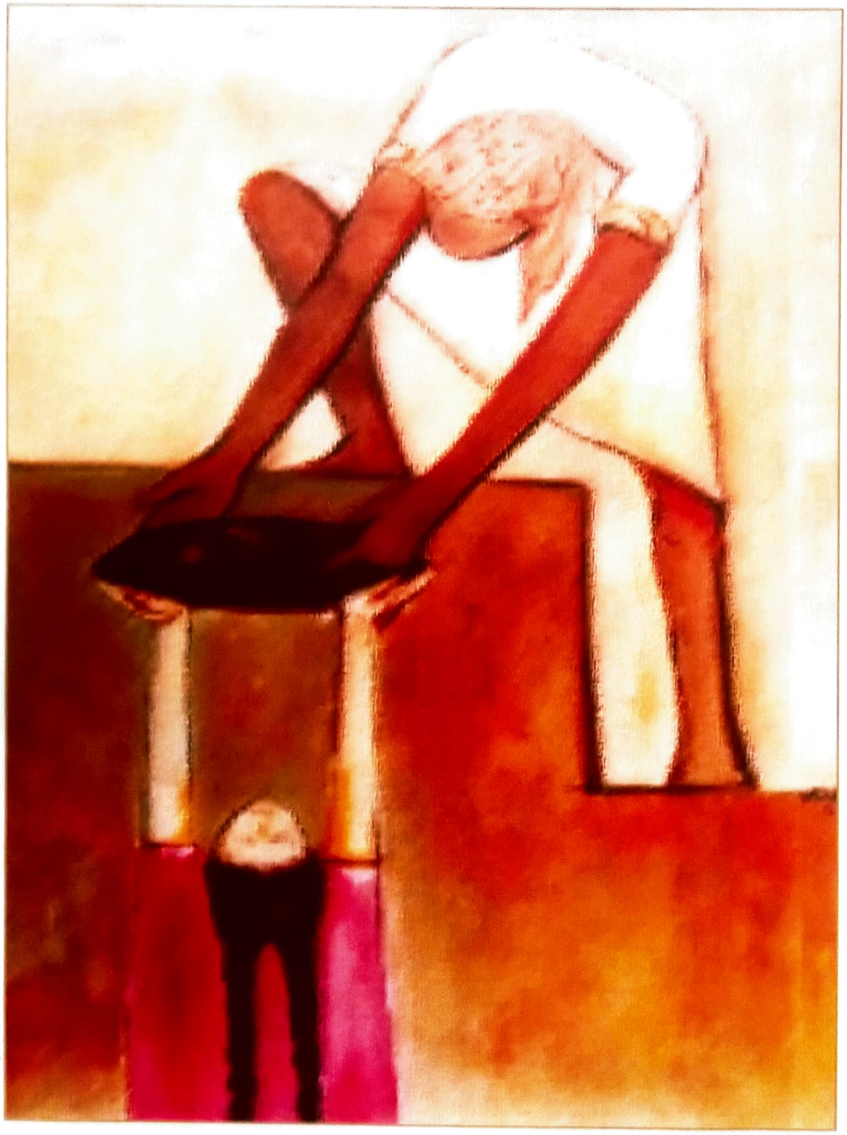

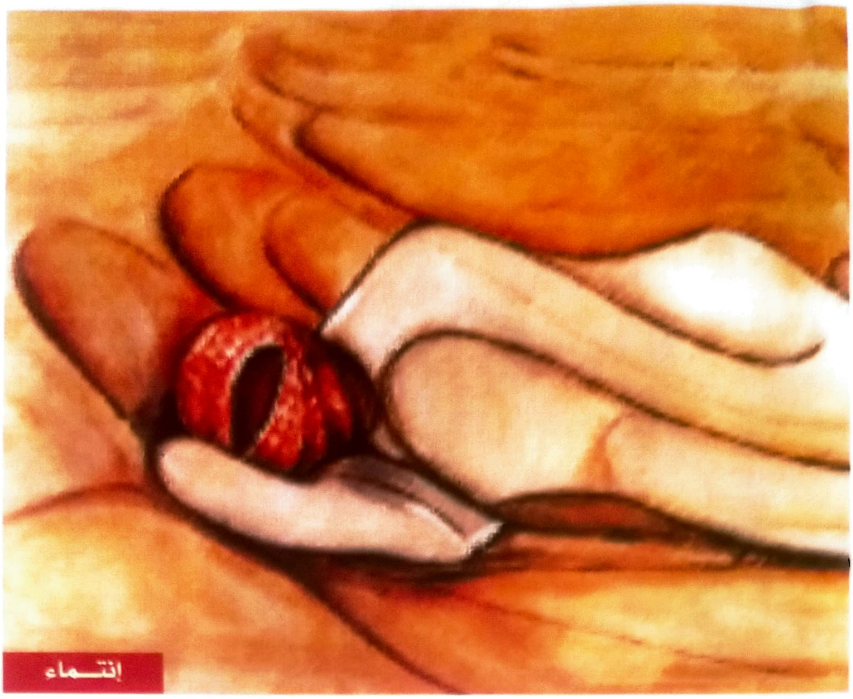

إنتماء

وإذا قادتك قدماك إلى مرسمه بالرياض فإنك قد لا تستطيع الوقوف لحظة للتأمل لأنك تكون منجذباً تتسارع خطاك سعياً لرؤية أعماله فهو عندما يصور الصحراء يصبح جزءاً منها: النخلات صامدات على مر الزمن، وهؤلاء النسوة جلسن على الأرض في انتظار الزمن، وتلك الزوجة هي الأخرى تنتظر في هدوء وأمل وهذه الزوجة وزوجها في حالة بناء مشترك، وهذا الرجل يمد لك يده يساعدك على الوقوف واللوحة تؤكد ذلك المضمون.

وكلها أعمال تتفاعل مع الحياة قلباً وقالباً وبلا جمود ومعظمها يدعو إلى الانتماء والبناء ليكوّن رؤى عميقة لروابط متينة.

بداية غير مشجعة !

منذ مولده بقرية "الزبير" بالعراق انطلق الفنان الصغير عبدالجبار اليحيا من خلال أربعة مصادر متزامنة أولها: مشاغبته بقطع الفحم الأسود على جدران منزله وبمجرد إتمام عمله الفني نال جائزة كبيرة لم يكن يتوقعها "علقة ساخنة" من والده وهذه "المعاملة" جعلته يعاند أكثر مواصلاً هوايته في الفن الأصيل.

ثانيها: ابن خالته الكبير (ناصر الخرجي) الذي كان فناناً ونحاتاً ومثقفاً متميزاً في ذلك الوقت.

ثالثها: كتاب علم الحيوان لأخيه الأكبر بالثانوي والذي بدأ منه بالنقل والتقليد مما أكسبه مهارات الرسم الدقيق.

وآخرها: وجود المعسكر البريطاني للجنود الألمان والإيطاليين أثناء الحرب العالمية الثانية بالقرب من الزبير وكانوا يتوافدون على القرية لرسم المآذن والوجوه العربية والمباني البيئية فكان دائم الالتزام معهم، يشاهد ويراقب، وأهداه أحدهم رسم مئذنة فتأملها طويلاً واحتفظت ذاكرته بكيفية الرسم بالألوان المائية.

المرأة في لوحاته

وللمرأة مفهوم خاص في حياة الفنان (عبدالجبار اليحيا) فهي الأم والزوجة والابنة، يقول الفنان في إحدى دراساته: إن المرأة ما زالت وستظل رمزاً للعطاء والبذل والخصوبة والتضحية ونكران الذات ويكفيها أنها أول من آمن بالنبي محمد صلى الله

سوق القرية

النبأ

المرأة في تصوير (اليحيا)..
مؤسسة اجتماعية ممتدة

عليه وسلم، ووقفت إلى جانبه تسانده.. السيدة خديجة أم المؤمنين هي دائماً المثال الأكمل في هذا السياق.

ولأجل هذا الاحترام للمرأة فإن لوحاته في الغالب لا تخلو من العنصر النسائي في صياغات متنوعة وفنيات متعددة وألوان بمذاق خاص، دون تكرار أو ملل، والملاحظ أن الفنان يستبعد بعض المصطلحات التي تعارف الناس عليها بالنسبة للمرأة كالضعف والوهن والخنوع، ويؤكد أنه كلما تجدد الزمن تجدد معه عطاء المرأة بصورة أظهر لتقوم بدورها الطبيعي في المجتمعات الإنسانية، فهي الأم والزوجة والابنة وهي كذلك المهندسة والطبيبة، وفوق كل ذلك هي المؤسسة الاجتماعية ودار الحضانة الكبرى، والأكثر صدقاً لكل بني البشر ومن أجل ذلك كرمها الإسلام .

الانتماء والبناء رؤى عميقة لرابطة متينة

بلاغة البناء

البناء هو معنى ومضمون يحث الفنان على الالتزام بقواعد الارتفاع على المستوى الرأسي للبناء والأفقي للوجدانيات، فقد صمم أساساً بنائياً اعتمد على الخطوط الرأسية والأفقية والمائلة ليتوافق كل من الشكل والمضمون، ورغم بساطة التركيبة البنائية إلا أنها وصلت إلى حد البلاغة التعبيرية

لتأكيد المضمون الفلسفي الكامن في اللوحة.

ويرسل الفنان رسالة اجتماعية للمتذوق. رسالة بناء للرجل والمرأة، دعوة للمشاركة الفعلية في التنمية والانتماء للوطن السعودي المعطاء.

وقد أكد تلك المعاني باستخدام اللون البني ودرجاته مع الأحمر البنفسجي والأخضر المصفر.

كما كانت لصياغاته التشكيلية لكل من الرجل والمرأة دورها في تأكيد بناء العمل، حيث جعل محصلة العمل هي نقطة اللقاء وبؤرة المضمون، حيث أمسكا بمادة البناء لتجسيد المعنى والمضمون تشكيلياً واجتماعياً وجمالياً.

انتماء أصيل

الانتماء للوطن قضية مهمة شغلت تفكير فناننا واستطاع رصدها ونقلها إلى حيز التصوير التشكيلي بمعنى من المعاني التعبيرية ذات المضمون الوجداني والروحي، فالابن ينتمي إلى أسرته بالوفاء والبذل ورد الجميل، والأم ترتبط مع أبيها وزوجها وأولادها ووطنها بالعطاء والتضحية.. البناء إذن معانٍ كبيرة تبدأ من الأسرة وتصب في الوطن.

هذه المعاني مجتمعة استطاع الفنان إيجازها في جملة تشكيلية بليغة جداً، إنها لحظة من أصعب اللحظات التي تواجه الفنان وهي تحويل المضامين الفلسفية إلى مدركات بصرية تتطابق معها شكلاً وصياغة ولوناً، مثل معاني الانتماء فكل متذوق لا يستطيع أن يفصل جسد الإنسان السعودي عن بيئته وأرضه وإنما يصور من كل ذلك نسيجاً سداه الرمال ولحمته الإنسان.

نبأ مؤلم

اعتمد الفنان في لوحة النبأ والتي رسمها عام ١٩٩٠م كرد فعل على الأحداث الجارية في تلك الأيام، تصوير أسرة التفت حول المذياع لسماع النبأ .

والمتأمل بتذوق لهذا العمل وخاصة الوجوه الخمسة يجد أن الفنان يؤكد على الملامح التي تعكس تعبيراتها وملامحها ذلك النبأ فنجد والد الأسرة يضع يديه على وجهه ونقرأ من خلال اللوحة المعبرة الحزن والصرامة والأسف على ما يحدث، الابنة تشارك والدها في حزنه، والأولاد ترتسم على وجوههم تقاسيم تساند وتعبر وتحس بالحدث.. أما الأم والتي تقف في مواجهة أفراد الأسرة فهي تجسد بنظراتها الحاضنة للجميع عمق الحدث ووقع النبأ المؤلم.

طائر طليق

من خلال العرض السابق والمتأمل في أعمال الفنان عبدالجبار اليحيا لا نستطيع تصنيفه وتحديد أسلوبه أو اتجاهه في شيء بعينه، فهو طائر طليق ناشر لجناحيه يتفاعل مع الزمن بالحوار ويتفاعل مع الأحداث على كل الساحات، ولكن تظل القيمة الجمالية هي المحك الأساسي في أعماله فنراه أحياناً يغرد في أطراف الصحراء وحيناً على جريد النخيل ومن البيئة العامرة يتحول إلى الإنسان.. يصور أعماقه وينمي إنسانيته.

يرفرف هنا وهناك، ويلتقي دائماً مع المضامين وجوهر الأحداث دون أن ينسى الحكايات الشعبية المتوارثة في البيئة السعودية على مر العصور.

---

*أستاذ التصميم - جامعة الملك سعود